

عبد الرحمن الغافقي

أعلام القادة

obeikandi.com

القائد عبد الرحمن الغافقي

عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك (سنة ١٠٢ هـ) فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميراً، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلاً، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي عمل يذكر، حيث أقام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبة بن سحيم الكلبي^(١).

يعتبر عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، وعرف بحسن القيادة والشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلى بلاءً حسناً في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هزيمة المسلمين أثراً عميقاً في نفسه، ولذلك كان تواقاً لمواجهة الفرنجة، راغباً في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت انبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلي جانب صفاته السابقة معروفاً بنزاهته وحياده لا يتحيز لفريق على آخر، ولا يتعصب لعنصر على آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٦، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢١٤ - ٢١٥.

أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية^(١).

عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي واليا على الأندلس مرتين، الأولى في عام ١٠٢ هـ - ٧٢١ م، لمدة عام، والثانية من قبل والي أفريقيًا مؤيدا من الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر عام ١١٢ هـ وفي أوائل عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ هـ.

ولما تولى عبد الرحمن الأندلس الولاية الثانية رأى ضبط البلاد أولا ثم السير بعد ذلك للغزو، وقضى عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ أن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية^(٢).

ولعل أهم المعارك التي خاضها عبد الرحمن الغافقي في تاريخه الجهادي هي معركة بلاط الشهداء^(٣) - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة ١١٤ هـ / نوفمبر ٧٣٢م واستشهد الغافقي

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤١.

(٣) بلاط الشهداء.

هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و (بواتية) في الشمال الغربي من فرانسًا قرب نهر (اللوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده المعركة.

نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور^(١) وبواتيه^(٢) حوالي ٣٢٣ كم جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها.

فبعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام ١١٤ هـ / ٧٣٢م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخترقا ممر رونسفال ومتجها إلي مدينة بوردو^(٣)، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكيثانيا أودو اعتراض زحفهم والتصدي لهم، فالتقى الجمعان علي نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بوردو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكيثانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي إفتتحوها، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا مدينة بواتيه ففتحوها، واتجهوا إلي مدينة أخرى قريبة منها

(١) تور tours :

مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(٢) بواتيه poitiers :

مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الواقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارتل الزحف العربي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.

(٣) بوردو Bordeaux :

مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعدة إقليم (جيروند) في فرنسا تقع عند مصب نهر (الجارون) (lajaranne) الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبد الرحمن الغافقي غازيا فرنسا سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وإنسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، وتتمتع بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد إستنجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجده، وإلي يقاف الجيوش الإسلامية عند حدها^(١).

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما استطاع من الإمكانيات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلي حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتى بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء علي ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ إن عبد الرحمن الغافقي فضل علي إثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلي السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته للقاء العدو^(٢).

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد إستولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمون في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٢.

(٢) المصدر السابق.

قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيئ علي الجيش الإسلامي، وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة.

بدأت المعركة في سهل تور أو بواتيبه في رمضان سنة ١١٤ هـ / نوفمبر ٧٣٢ م، بمناوشات إستمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة إستمرت إلي أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم أستؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم علي جيش الفرنجة حتى كادوا يقطفوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلي المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثا أن يعيد إلي الجيش تنظيمه، غير أن سهما أصابه من الأعداء فسقط شهيدا في أرض المعركة، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعا اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون علي مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلي موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا علي الرجوع إلي ديار الإسلام متجهين إلي سبتمانيا،

أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد بات الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء على المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح نظروا إلى معسكر المسلمين فوجدوه خاليا من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع قلوب المسلمين لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كميننا نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فأثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو الشمال معتزا بما أحرزه من انتصار على المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي (١).

في الحقيقة أنه علي الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطبا إياهم: ما جننا من أجل هذه الغنائم، وما جننا إلا لتعليم هؤلاء الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغما عن أنف

(١) حسن مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٣ - ١٤٤، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢١٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٣ - ٧٤.

الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبية التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كل ينظر إلى ما بيد الآخر، وكل يريد الأكثر، يقول العرب أنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرقوا أبدًا بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك، وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفًا من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حُنينًا جديدة {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنزِلَتْ عَلَيْكُمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَلَمْ تَغْنَمْ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَتْ لَكُمْ} [التوبة: ٢٥]، فالمسلمون لم ينتصروا أبدًا بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني التقوي الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصرًا دقيقًا لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جدًا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز الخمسين ألفًا.

وفي رواياتهم يقول الأوروبيون متخوفين أنه لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعاً، ولدُرس القرآن في جامعات أوكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، ووالله إنها لتعاسة لهم وخسران أن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوروبيون، بدليل أن جيش النصارى لم يتبع جيش المسلمين حيث انسحبوا، وكان من عادة الجيوش أنها تتابع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى بما أخذوه من غنائم وما قتلوه من قتلى المسلمين.

وقفه مع بلاط الشهداء:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغتروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتنافسوها، وقد جاء عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(١).

فسنة الله تعالى في خلقه أنه إن فتحت الدنيا على المسلمين وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم

(١) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ١٠٣٦ في صحيح الجامع.

أَيْضاً كَمَا أَهْلَكْتَ هَذِهِ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ لَفَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة وهو العنصرية والعصبية القبلية التي كانت بين العرب والبربر في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذا الذي نشأ بين العرب وبين البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلالية منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قرييون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلا؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماما في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيرت، في بادئ الأمر كان

البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ، وكانوا يمثلون خمسة عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذكي الروح البربرية في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي جعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *